يعتبر العالم المجري اغناتس غولدسيهر أشهر المستعربين الأوربيين الذين قدموا لعلمي الاسلاميات والاستعراب خدمة كبيرة، وأضحت مؤلفاته ذات القيمة العلمية الكبيرة كتباً تعليمية لأجيال من المستشرقين في كل أنحاء العالم منذ صدورها ولغاية هذا اليوم. وبمناسبة الذكرى الخمسين بعد المائة لميلاده، نظمت أكاديمية العلوم المجرية مؤتمراً علمياً احتفاء به في حزيران 2000 في يوم ميلاده، وبنفس المناسبة نظم المعهد الثقافي المجري في القاهرة بالتعاون مع المعهد الثقافي الايطالي في الخامس من تشرين الأول 2000 مؤتمراً علمياً في القاهرة للاحتفاء بهذا العالم. وقد صدر في نفس العام كتاب للمستعرب المجري روبرت شيمون بعنوان (اغناتس غولد سيهر)، جمع فيه العديد من الدراسات التي وضعها عن المستشرق المعروف. وكان شيمون قد ترجم القرآن الكريم إلى اللغة المجرية بجزءين، الأول هو ترجمة القرآن والثاني تضمن الشروح والتعليقات التي لا غنى عنها لتوضيح خبايا الذكر الحكيم أمام القارئ المجري الذي يجهلها

إغناتس غولدسيهر أشهر المستعربين المجريين

تحول تفكيري بالكامل صوب الإسلام

ثائر صالح

أقام سيهر علاقات حقيقية مع العالم الإسلامي فزار سوريا وفلسطين ومصر في شتاء 1873-1874. وفي مصر تعرف على جمال الدين الافغاني ونشأت بينهما صداقة، وكانا يلتقيان يومياً ليتحدثا ساعة. وقتها تكونت علاقته العميقة بالاسلام. كتب في مذكراته: "تحول تفكيري بالكامل صوب الإسلام، وجذبني أيضاً تعاطفي الشخصي بهذا الاتجاه. أسميت توحيدي اسلاماً، ولم أكذب عندما قلت بأنني أؤمن بنبوة محمد. نسخة قرآني تشهد على الحميمية التي ميزت علاقتي بالإسلام". (المذكرات ص[illegible]).

وفوق ذلك كان يتعاطف مع المصريين الذين عملوا لوقف الهيمنة الأوربية (البريطانية والفرنسية) في مصر، ولم ينشر مذكراته التي كتبها آنذاك لأنه اعتبر ذلك خيانة للأصدقاء المصريين: "في فترة الاحتفالات التي نظمت بمناسبة زواج ابنة نائب الملك قمت بالدعوة في السوق ضد نفوذ الأوربيين الزائد عن الحد، وفي مجلس صالح الجندي كنت أوضح نظريات التاريخ الثقافي عن الحضارة الاسلامية المحلية وتطورها كونها القطب المضاد للمرض الأوربي المستفحل. إن ما أعطاه عرابي وضباطه بسيوفهم من تعبير بعد ذلك بعشر سنوات هو عين ما كنت تحدثت عنه في تلك التجمعات التي تواجدت فيها. تملصت من حضور الاحتفالات سوية مع الأوربيين". (المذكرات ص[illegible]).

بهذه الصداقة الحميمة أصبح غولدسيهر الأوربي الأول الذي سمح له بحضور دروس جامعة الأزهر، وبموافقة خاصة من شيخ الأزهر المهدي العباسي، فواظب على الدروس لأربعة أشهر.

كانت هذه الفترة التي تبلورت فيها آراؤه عن الإسلام، وجمع خلالها مادته الغنية لتأليف كتابه القيم "دراسات في الاسلام" لكنها نفس الفترة الغنية التي عاش فيها شخصياً مراحل النهضة العربية وظهور الوعي القومي. كان يكرر في كتاباته أن أحد أسباب اهتمام الدول الأوربية الكبرى بالاستشراق هو تأمين إحكام سيطرتها الكولونيالية وهيمنتها على "الشرق المتوحش".

ولا تزال هذه "التهمة" تتردد كثيراً إلى اليوم، رغم الخلط بين العالم والمستشرق من جهة، بالجاسوس ورجل السياسة المتخصص من جهة أخرى.

وبحكم علاقاته الوطيدة مع شيخ المستشرقين الالمان تيودور نولدكه (1836-1930) طلب منه الأخير أن يهمل الكتابة باللغة المجرية لمحليتها وجهل الباحثين بها، والاقتصار على الكتابة بالألمانية التي يفهمها الجميع.

ومع ذلك نشر غولدسيهر العديد من الدراسات الهامة باللغة المجرية، لم يترجم الكثير منها إلى لغات أخرى إلا بعد عقود أو حتى ما يقارب القرن من الزمان. وقد اعادت أكاديمية العلوم المجرية نشر مختارات من أعماله المكتوبة باللغة العربية في جماعة لورانت المستشرق أورموش أتفش للعلوم ببودابست.

يرى غولدسيهر أن تاريخ تطور الاسلام هو نتيجة للتأثيرات الأجنبية التي احتك بها بمرور الزمن. فالعقيدة تأثرت بمصادر الفلسفة اليونانية، والطقوس الدينية بالرؤية الدينية الفارسية، وتشير الشريعة إلى مصادر القانون الروماني، وحتى نظرية الدولة والخلافة تكونت بتأثير تنظيم المملكة الساسانية، ناهيك عن تأثير الأديان التوحيدية، كما أنه يرجع ظهور الصوفية إلى تأثيرات هندية، والحركات المارقة (الزندقة) إلى تأثير البوذية. وكل تأثير خارجي جديد كان يتحول إلى لبنة في بناء صرح الإسلام. لكن هذه التأثيرات الخارجية لم تبدأ في لحظة الفتوحات الإسلامية العظيمة التي نقلته إلى مسار تاريخي عالمي، بل في مهد تكونه وإن كان تأثيرها صغيراً أو متخفياً (من محاضرة بعنوان "تأثير البوذية على الإسلام [illegible]).

صدرت دراسته "موقع عرب الاندلس في تاريخ تطور الإسلام، بالمقارنة مع موقع عرب الشرق" في عام 1876، وقدمت في جلسة أكاديمية العلوم المجرية التي حصل فيها على مقعد عضو مراسل في أكاديمية وهو في السادسة والعشرين.

كنت اوضح نظريات التاريخ الثقافي للحضارة الاسلامية

وفي هذه الدراسة يؤكد غولدسيهر على مرونة اللغة العربية في تشكيل مصطلحات جديدة تظهر في مسار التطور الحضاري. وتتركز دراسته على البحث المقارن لتطور الحضارة العربية- الإسلامية في شقيها، الشرقي والأندلسي في مختلف صنوف المعرفة، العلوم الإسلامية والاجتماعية والطبيعية والفنون.

ولا يزال كتابه "دراسات في موضوع تاريخ الدين الإسلامي ([illegible])" واحداً من أهم الكتب التعليمية إلى اليوم، وقد زوده بملحق هو الترجمة الكاملة لأربعين النووي، وقد ترجم إلى المجرية فيما بعد وهي حسب علمنا أول ترجمة لمجموعة الأحاديث النبوية الشريفة إلى اللغة المجرية (أعاد المستشرق القس بال تيميت ترجمة الأربعين النووية من العربية إلى المجرية بلغة عصرية وصدرت في طبعة أنيقة سنة [illegible]).

ويعتبر كتابه "دراسات إسلامية" (هاله، الجزء الأول 1889، الجزء الثاني 1890) من أهم كتبه، وفيه دراسة عنوانها "نشوء الحديث" أشار فيه إلى إشكالية التوثق من صحة الحديث رغم صحة إسناده وإلى أن الكثير من الأحاديث وضعت لاحقاً لأغراض سياسية بهدف تبرير أحقية لحكم (العباسيين مثلاً) أو للتقليل من شأن الخصوم (انتقام العباسيين من الامويين)، ولدعم موقف فئة ما حول خلاف في تفسير آية من القرآن الكريم، أو خلاف حول جانب من جوانب الدين.

يقول غولدسيهر، "مع فقدان الأدلة الموثوقة يصبح من المجازفة اعطاء رأي لو بدا صحيحاً بصدد الطبقة الأكثر قدماً أو أصالة من الحديث، أو بصدد أي من الأحاديث التي يمكن إرجاع وقت نشوئها إلى الأجيال التي عاشت بعد وفاة الرسول مباشرة. بعد كل هذا، لن نعتبر الحديث شهادة على التاريخ الأول للإسلام، بل كتعبير عن الحركات والتطلعات التي ظهرت في مراحل تطور الاسلام اللاحقة والأكثر نضوجاً" (ثقافة الاسلام مجموعة دراسات مترجمة إلى المجرية ص[illegible]) فضلاً عن دراسته حول الشعر العربي، والأدب العربي عموماً اللتين يثبت فيهما تمكنه من المصادر الأصيلة للأدب العربي.

ويلخص غولدسيهر بحاثه عن الاسلام في سلسلة كتب اعدها هينبرغ ضمن جزء الأديان الشرقية (برلين- لايبتسج [illegible]).

يتناول غولدسيهر ديانة العرب في الجاهلية، وظهور الاسلام وحياة الرسول الكريم ونزول الوحي، ويتفحص السنة والحديث والشريعة (ويدرس تأثير القانون الروماني عليها) ثم يتطرق إلى الأئمة الأربعة وظهور المذاهب، ويفصل في دراسة التشيع والسنة. ويدرس التطور اللاحق في الفترة العباسية وتأثير الفلسفة اليونانية وظهور التصوف والنسك والاسماعيلية والنصيرية والبابية وغيرها، ويتوقف طويلاً عند الامام الغزالي.

وفي نفس السلطة ينشر غولدسيهر في جزء التاريخ العالمي للفلسفة عمله عن (الفلسفة الاسلامية واليهودية في العصر الوسيط). يمتدح غولدسيهر في مقدمة عمله اللغة العربية لقدرتها على استيعاب المفاهيم الفلسفية الجديدة، الأمر الذي يطرح إشكالية مواكبة لغتنا العربية المعاصرة لتطور العلم الحديث.

كما أنه يعتبر بدء تطور الفلسفة العربية - الاسلامية من بدء دخول الفلسفة مجال الأفكار الدينية الاسلامية، ومن ثم اتخاذ علماء الدين والفلاسفة موقفاً كل من الآخر.

ويتناول التيارات الفلسفية الأساسية مثل المعتزلة وموقف الأشاعرة، والفلسفة الأفلاطونية الجديدة والمدرسة الارسطوطاليسية العربية، والصوفية.

ويتوقف عند أبرز الفلاسفة المسلمين مثل الكندي والفارابي وابن سينا ثم هجوم الغزالي على الفلسفة، ويتناول مدرسة ابن رشد وابن باجة وابن طفيل.

ويأخذ المتكلمين مثل الرازي والطوسي ويدرس التأثير الذي مارسته الفلسفة العربية الاسلامية على تطور الفكر الأوربي. ويفرد غولدسيهر جزءاً خاصاً للفلسفة اليهودية في العصر الوسيط لتلك التي يعتبرها انعكاساً للتطور الفكري العربي الاسلامي. ويلمس وجود نفس المشاكل الفلسفية والنقاشات بين الفلاسفة والاحبار اليهود (الذين كتبوا أعمالهم باللغة العربية لكن بالحرف العبري)، تلك التي خاضها العلماء العرب والمسلمون.

ويركز غولدسيهر على دور اليهود في نقل الفلسفة العربية -الاسلامية إلى أوربا عبر الترجمة. وكتابات غولدسيهر التي وضعها باللغة المجرية مفهومة، واضحة، تجذب القارئ وتشده إلى الموضوع بقوة رغم صعوبة المادة التي يبحثها. ولغته في دراساته القصيرة التي كان يلقيها في محافل أكاديمية العلوم أو ينشرها في المجلات العلمية هي أقرب إلى لغة المخاطبة، يشع منها تواضع هذا العالم الكبير.

ويبقى أن نقول أن غولدسيهر كان من بين المستشرقين القلائل الذين اعترف العالم بسعة علمهم، وخلو أعمالهم من النيات السيئة التي ميزت عمل عدد غير قليل من المستشرقين، مثل خدمة مصالح الدول الاستعمارية، أو التحيز لفئة على حساب أخرى، أو النيل من هذا الدين أو ذاك عن قصد.

وما كان يفصح عن رأيه الشخصي أو تعاطفه أو بغضه في أعماله العلمية، بل كان وازعه البحث العلمي وفهم الظواهر المختلفة التي عالجها. ولربما برزت أصوات تنتقد بعض آرائه، إلا أنها قليلة إذا ما قارناها بحالات مستشرقين آخرين.

وأبرز اعتراضات غولدسيهر تتركز على آرائه بصدد الأحاديث النبوية الشريفة كما أشرنا إليها من قبل، واعتباره الكثير منها منتحلة في فترات لاحقة لأسباب سياسية، وهناك من يعيب عليه استعماله مصادر مثل كتابي "الحيوان" للجاحظ و"الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني في دراساته، وهي مصادر لا يعتبرها البعض أعمالاً "علمية"، وليست لها علاقة بالحديث. من جانب آخر يستشهد غيرهم من الباحثين المسلمين باستنتاجات غولدسيهر في هذا المجال كمرجع أساسي.

لكن هذا الاختلاف في الآراء لم يؤثر على أهمية العمل العلمي الذي أسهم به غولدسيهر في حقلي الدراسات العربية والاسلامية.

> تسرب إليّ صوت امرأة ناعم ردت على أخرى منادية:
> - جاء السيد
> إجابة بسيطة لا تنطوي على قصدية الاختيار، لكنها تكشف عن دلالة مجيء الشهيد مانحة له طاقة الحركة في الواقع وليس الحلم. لقد تناظر نتاج خيال المرأة مع تمثيلات اسطورة الكارزمة وحركة المقدس أو غيابه الذي هو حضور دائم ومستمر. نظرت من فرج الباب إلى حشود العباءات السود المتراصة بحركة بطيئة، وأخرى سريعة تدنو من الركض. وتناهت إلى سمعي -أنا القريب من شارع أربعين- اصوات مبحوحة وحشرجات، اعتقدت لحظتها ان مسيرة الكارزمة وصلت إلى الشارع حيث الاتجاه نحو النجف الأشرف.

غياب الكارزمة واسطورة المقدس

ناجح المعموري

هرعت وكنت الرجل الوحيد وسط حشد من النسوة المسرعات وأخريات بحلينات لاهثات متعبات بشيخوخة تحلم باستعادة مشهد مقدس صاغته ذاكرة عبر زمن طويل، لاحقته الطاغية بالمنع والقمع. لقد توحد مشهد الكارزمة، الآن مع تواريخ الدم والتضحية عبر التاريخ بتراكم تراجيديا القتل والغياب والتعطيل. تراجيديا اقترحتها تفاصيل تعطيل الزعامة الروحية المفوضة شعبياً بالإنقاذ والخلاص.

- جاء السيد

جملة بسيطة للغاية لكنها مشبعة بمعنى أسسه المشهد المأساوي واقترحه سيل الدم المقدس الذي فاض قبل الآن.. دم هو رمز في اللاوعي الذي صاغته مخيلات مختلفة ومتنوعة ومتضادة، لكنها متفقة على حياة لابد أن تظل متدفقة. الدم حياة وموت، ومشهد لحظة إشهار بحيوية البقاء، مثلما هو إعلان عن الموت والغياب.

دم.. وجاء السيد، وحشرجات وصراخ وعويل، ينفتح له فضاء شارع أربعين المتسع جداً.. صراخ اقتحم العمارات العالية وتسرب مرتفعاً كالرعد مستفزاً كل الخفايا، ومحركاً الصور الذهنية عن طقوس غيبها الخوف منذ عشرات السنين، صراخ استعاد لحظة التجلي والتباهي بممارسة عقائد وشعائر الدم المستمر منذ ستة آلاف سنة. دم يعلن عن الموت لكنه يومئ بولادة حتمية، الدم المرئي موت، والدم الخفي النازل خيطاً سرياً حياة، رمز صاغ تلاقحه واختلافه التي لم ينطو عليها رمز آخر في الاسطورة وممارسة الطقوس والشعائر.

- جاء السيد

استعيد هذا الصوت، مرة أخرى وأنا ألحظ الجموع الزاحفة مظللة بغبار الحزن لغياب سيد قبل خمسة آلاف سنة.. سيد هو حكيم آخر، لكنه من سومر وليس من النجف. انه السيد السومري وذلك الراعي دوموزي، فهو سيد أول في الراعي ومنظوم الخصب في بلاد سومر الواسعة. هو إله شاب، لم يقو عليه الموت، فيغادر عالمه السفلي في العراق، سوريا وكنعان وبلاد الاغريق.. يعاود صعوده منبعثاً بألوان حمر، كما في أسطورة الكنعاني. الأحمر لون الدم الذي نزفه، وبفقدانه نزل إلى الجحيم وظل وتبعثه ثانية مثل شقيقه النعمان. يولد الاحمر تداعيات كثيرة للمهتم بالخطاب الاسطوري ويجد فيه ثنائية مختلفة، وكان البنية الذهنية الاسطورية تجاهد من أجل الإبقاء على الخصب، ولذا ظل الاحمر مقترناً بالالوهة الشابة المذكرة، لباساً وعلامات أخرى دالة على منظوم ثقافي حافظ على عناصره الجوهرية مع كل الاستبدالات الحاصلة عليه.

- جاء السيد

هتاف انطوى على العود وتجدد الانبثاق. لكنه في المشهد المأساوي حضور متباين تماماً.

- جاء السيد

ترددت في ذاكرتي واستعادت لحظتها السومرية الأولى التي غيب فيها السيد ابن الإله الحقيقي، وظل الإله مرافقاً جليلاً له في الاسطورة وكأنه مكتف بمجاله الانبعاثي الذي تماهت معه أساطير الشهادة في السرود التاريخية. حشود مكتئبة، حزينة، باكية، تهز الفراغ ببيارق خضراء وحمراء.. رموز للخصب والحياة استوعبا الخطاب الاسطوري وإضاءة لحظة الفقدان وعبرا عنها وصاغا خطاباً ضدياً وهادئاً ضد الموت والدمار والخوف منهما، على الرغم من أن الناس- جميعاً- تشترك بمخاوف منه، كما قال هايدجر. موت وبشاعة، وغياب للكارزمة، عبرت عنه الألوان العديدة.. الأسود والأصفر و الأخضر والأحمر.. أصفر دال على وحشية القوة.. أصفر زاحف في مشهد نزول الكارزمة إلى عالمه السفلي، وهو يتسع وسط الشارع الممتد كأنه بديل لشارع الموكب في بابل القديمة ومزاولات الأكيتو وطقوس التجدد. شاحنة صفراء طويلة حملت نعش الكارزمة المغطى بشرشف أخضر وأحمر، وحوطه عدد من تلامذته وحوارييه بزيهم الديني، إعلاناً عن الانتماء الثقافي والروحي للبطل الحكيم، الغائب الحاضر، كأنهم يستعيدون من خلال جلستهم ونثر الماء جلسات يسوع مع حوارييه وسط قوارب صيد، ماء وبكاء، نشيج نسوة وصراخ أطفال، أيادي متشابكة، تومئ مودعة للشاحنة و من كان عليها.. توديع الميت والحي. زحفت الجموع المهرولة، والراكضة حيناً تحت الحر، ناضحة تعبها وحزنها التاريخي ومأساتها المتجددة التي تمسك بها الكارزمة الآن، في لحظة جديدة معاصرة، واقترح انموذجاً توحيدياً للاستشهاد الحسيني في التاريخ والايديولوجيات.. هذه الوحدة التي اقترحها التاريخ وتشتغل عليها الخيال الشعبي واقترح تفاصيلها الاسطورية الجديدة والمعاصرة المتصلة بعناصر الطقوس الأولى التي عرفها فجر الحضارة في الشرق الأدنى القديم. لقد امسكت الاسطورة و الايديولوجيا بالوقائع التاريخية لفعل الاستشهاد، منذ لحظة كربلاء إلى لحظة الحكيم، وضغطت بتراكمها عبر القصائد والشعائر، وجعلت من التاريخ سرداً ميثياً متماهياً مع الانموذج الأول- البدئي، وساعية إليه عبر التكرر و (العود الأبدي) النيتشوي، الذي صاغه، بوضوح وتحليق كبير، مارسيا إلياد.

-حي.. ميت، إحنه وياك.

هتاف أطلقه حشد من شباب متحرك بنسق هرولة عسكرية منتظمة، وفي الهتاف تداخل واضح بين الايديولوجيا والتاريخ، وبروز لدورها الطاغي وقدرتها على صياغة اسطورة جديدة تمارس الغاء الزمن التاريخي الدنيوي، وتدفع بالحادث التراجيدي على حاضنة زمن مقدس، هو الخالد والباقي، كما قال الياد. لكن بقاء هذه المرة مختلف عن بقاء الآلهة في الأساطير. انه مثول الكارزمة في كل لحظة السرود والخيال الآني. ومن يدري، فإن التحيين والاستدعاء المستمر سيجعلان من الكارزمة شخصاً جديداً ومختلفاً.

- جاء السيد، أو: حي.. ميت.. احنه وياك.

هتاف ونشيد حماسي، رسم في الذهن مشهداً جديداً أطلقت عليه استعارية ورمزية الغيتا صفته التاريخية حتى تكتسب معنى اسطورياً جديداً. انها الاسطورة اليوم، وعقد الآن الناهضة من سراديب القمع والإبادة.. الأسطورة اليوم التي بإمكانها حيازة حقيقتها الدينية، لأنها تماهت مع انموذج أول، هو دوموزي، وآخر تاريخي وأسطوري هو (استشهاد الحسين عليه السلام)." ويرى العقل البشري كل تضحية تكرر التضحية الأولى وتتطابق معها". لكننا يجب أن نؤشر ملاحظة مهمة وهي حيازة الكارزمة لعناصر الثورة. وكأنه مسك بلحظة أوزيريس المصري- لعلن عنها بزخات من الرصاص المتناغم مع زخات أخرى وأخرى. انه تعبير عراقي كرسته الحروب العدوانية، واستعاره الخيال لإنشاء تعبير ثقافي جديد بالعلاقة مع الكارزمة.. تعبير دلالي عن القوة والطاقة والإبقاء على الرفض الذي عرفته مواكب التشييع و العزاء الأول. تداخلت عناصر المشهد معاً.. التاريخ والايديولوجيا والطقوس الاسطورية المستعادة من لحظتها الأزلية.

- حي.. ميت.. إحنه وياك.

لغة واضحة وشفيفة. انها النظام الأيديولوجي / النظام الرمزي، كما قال بول ريكور، وهو كالاسطورة نظام رمزي آخر، كلاهما يكثف الواقع بصيغ مختلفة، يكثف الاسطورة بالطقوس والشعائر والإيماءات فيما الأيديولوجيا تكثفه باللغة، بصيغة شعار.. كلاهما يحيل الواقع إلى بعده الميثولوجي، وذلك بإحالته إلى نماذج بدئية، لا توجد إلا في عالم القدسية القائم في الزمن الميثولوجي، كما قال مارسيا إلياد. ولذا كانت علاقة الاسطورة مع الايديولوجيا علاقة مركزية، وهما في هذه يلتقيان مع الدين ويستعيران منه نزعته الإيمانية، بل أن رمزية الاسطورة لا تفهم إلا عند اعتبارها ظاهرة دينية. مارست الذكورة- بوصفها منتجاً جنسياً واجتماعياً ودينياً- عزلاً ثقافياً وشعائرياً للأنوثة، ودفعت بها إلى هامش الطقوس، بعدما كان لها في الديانات المبكرة مركز له هيمنة وطغيان. ان الوظائف الثقافية لطقوس العزاء ومراسيم الدفن والرثاء لا تكون ولا تكتمل إلا بوجود مادي للمرأة، وقد تمثل هذا الوجود في مشهد تشييع الكارزمة- بـ(المشي)، الذي نمطته وظائف لها صلة بالطبيعة الأنثوية. واستجابت الأنوثة عبر التاريخ لهذا العنف الدموي والرمزي وتعايشت معه، وظلت مكررة لفعل الإزاحة الأزلي، غير قادرة على زحزحته ولو قليلاً. لسان من السواد بسعة الشارع يزحف وراء الشاحنة الصفراء، المتقدمة نحو النجف. يتسع ويكبر بحشود من شباب ورجال القصبات والمدن.. آلاف زاحفة مشياً وراء الكارزمة إلى مدينة النجف المقدسة، كأنها تؤدي حجاً، وربما تحلم باستعادة لحظة التضحية الجماعية في المرحلة السومرية حزناً على مليكهم النازل.

الأشياء تتداعى ثم تنهض من جديد

نزار أغري

تشبه الرواية الواقع. تتقاطع مع بعض وجوهه. تأخذ منه الوقائع والكائنات وتستعير أصواته وحركاته وسكناته.

فإذا ما هتف واحدهم، هذه الرواية جزء من الواقع عبر عن إعجابه وانفعاله. مثل ذلك مثل الناظر إلى تمثال إغريقي أو لوحة رومانية.

ولكن الواقع، بدوره، يشبه الرواية. نرى الحوادث والناس، أمام أعيننا، فنحسب أننا نقرأ رواية. يحدث أن نكون شهوداً على واقعة فتبدو وكأنها وردت في رواية، أو فصول منها.

فكرت في هذا وأنا أعيد قراءة "الأشياء تتداعى" للروائي النيجيري شينوا أشيبي. كنت قرأتها، للمرة الأولى، منذ ما يقارب العقد من الزمن حين أتيت عليها، صدفة، في مكتبة بيروتية. لا أعرف ما الذي جعلني أرغب في قراءتها ثانية. كنت على وشك الإنتهاء من قراءة النص حين فكرت في أن الرواية تشبه، في جانب منها، الحال الراهن في العراق. وعلى الفور ظهر لي العنوان وكأنه تشخيص دقيق للواقع.

ظهرت رواية "الأشياء تتداعى" عام 1995- وهي أول رواية كتبها شينوا أشيبي وكان يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً. بهذه الرواية دخل أشيبي عالم الأدب واعتبر، في ما بعد، واحداً من مؤسسي فن الرواية في أفريقيا.

كان أشيبي، في واقع الحال، أول روائي افريقي ينقل هذا الفن الأوربي إلى قلب القارة السوداء.

كتب أشيبي الشعر والقصة والمقال أيضاً ولكن الرواية بقيت الميدان الأرحب التي يمتحن فيها موهبته الكتابية. وهو في كتابته سعى إلى رسم صورة أفريقيا عارية من الفكرة المسبقة والكليشيهات.

في الحرب الأهلية النيجيرية (1967-1970)، أو حرب البيافرا كما سميت إذ سعت مقاطعة البيافرا إلى الإستقلال، احتل أشيبي موقعاً في الحكومة البيافرية الناشئة. وبعد انهيار تلك الحكومة اضطر إلى مغادرة بلده والعيش في المنفى الأمريكي.

لم يتردد أشيبي في النظر إلى نفسه كناطق عن جموع الناس الصامتين في أفريقيا (إحدى رواياته تسمى "رجل الشعب"). لا يؤذيه أن يكون داعية صريحاً لشعب الأيبو، الذي ينتمي إليه.

رواية "الأشياء تتداعى" تحكي عن هذا الشعب. هي سعي فخم لانتشال حياة جارية من قعر النسيان. إلقاء ضوء على جماعة الإيبو، مكثفة في قرية أوموفيا، عند نهايات القرن التاسع عشر، قبيل وصول المستعمرين الإنكليز بقليل وبعد وصولهم بقليل.

أوكونكو، بطل الرواية، يرى نفسه سيد القرية. في نظرته لنفسه تكمن القوة والسلطان. غايته الوحيدة في الحياة هي الظفر بالسطوة (السلطة) والجاه والشأن. وسرعان ما يغدو هذا الطموح هاجساً وسياسياً يصادر ملكات أوكونكو ويسد منفذ فكره وحواسه. هو يصير أسير هذه الرغبة التي تحركه كيفما شاءت وتدفعه إلى ارتكاب الأخطاء القاتلة بحق جماعته نفسها. ينتهك حرمتها ويعتدي على أقرانه ويتجاوز الحدود المرسومة فيها. هذا الأمر يخلق هوة ما تتوسع بينه وبين الجماعة إلى أن يقترف جرم القتل. ومن يقتل ينفى في قانون إيبو.

في فترة نفي أوكونكو (التي تستمر سبع سنوات) تصل طلائع البعثات الكولونيالية البريطانية إلى القرية. وبعد عودته من المنفى يرى أوكونكو أن القرية، قريته، قد تبدلت تبدلاً كلياً.

يعتبر أوكونكو المستعمرين البريطانيين خطراً على جماعته ويعلن عن رغبته في قتالهم. ولكنه يجد نفسه وحيداً. لا أحد في القرية يدعمه ويقف إلى جانبه. يقول صديقه أوبيريكا: الرجل الأبيض استطاع كسب ود أهل القرية ولم تعد هناك رغبة في قتالهم.

ولكن أوكونكو يرفض التسليم بالواقع. وبطريقة مفاجئة يقتل المبعوث الذي أرسلته الإدارة الكولونيالية. من يقتل ثانية يعدم في قانون إيبو. يعترف أوكونكو بجرمه ولكنه يرفض الخضوع للقانون وينتحر.

تجلي الرواية مأساة السكان الأصليين الذين يصطدمون بسلطتين طاغيتين لا رادع لهما: سلطة أوكونكو، المتغطرس، الذي يفرض نزواته الصارمة على الجماعة من جهة أولى وسلطة القوى الخارجية التي أتت لتخلخل البنى القائمة على الأعراف والتقاليد المتوارثة منذ آلاف السنين من جهة ثانية. باصطدام شعب إيبو بالقيم التي يحملها الكولونياليون معهم تهتز الأرض تحت أقدامهم وتتداعى الأشياء من حولهم شيئاً فشيئاً إلى أن ينهار كل شيء. يبدو وكأن كل شيء ينبغي أن يبدأ من جديد.

هل ثمة وجه للمقارنة مع الوضع في العراق؟ لنضع صدام حسين مكان أوكونكو وقرية العوجة مكان أوموفيا وقوات الحلفاء، المؤلفة أساساً من الأمريكيين والبريطانيين، مكان طلائع التبشير الكولونيالي.

هذه هي قوة الرواية، تجاوز تخوم المكان والتحليق في فضاء المخيلة التي لا حدود لها.

كثيراً ما يملأ الروائي ثغرات الواقع، حين لا يستجيب لمشروعه الكتابي كما يشتهي، بمواد مجلوبة من المخيلة. يزيد في المقادير أو ينقص منها، يوغل في المبالغة أو يتراجع منكمشاً على الكثافة.

ولكن يحصل أيضاً أن خيال الواقع يتفوق على خيال الروائي.

لم يكن أوكونكو، أمام سلطة صدام ونزعته في القتل أكثر من كائن ساذج طيب القلب. وحيث انتحر أوكونكو ليتفادى عقوبة الإعدام من أثر قتله لأمرئ واحد بقي صدام حسين يلوح بسيف المواجهة، يهدد ويتوعد، هو الذي قتل بما لا يحصى من الأرواح من ..... شعبه.

وإذا كان شينوا أشيبي دون "ملحمة" شعب إيبو ومأساة سيدها الطاغي أوكونكو فمن ذا الذي سيفلح يوماً في تدوين ما يشبه ذلك، ويتجاوزه، عن العراق وطاغيتها؟